الافتتاحيّة:
بين العربيّة والفارسيّة

أ.د. محمّد نور الدين عبد المنعم(*)

أخذت اللغة العربيّة تنتشر بين سكّان إيران بعد الفتح الإسلاميّ، وأصبح الفرس ينظرون إليها نظرة مقدّسة بصفتها لغة القرآن الكريم والدين الجديد، فتعمّقوا في دراستها حتّى يتمكّنوا من فهم دينهم وكتابهم الكريم، ممّا ساعد على انتشار هذه اللغة ورواجها.

وقد ظلّت اللغة العربيّة في المرتبة الأولى من الناحية الأدبيّة حتى أواخر القرن الثالث تقريبًا، حين أخذت القوميّة الفارسيّة تنهض من جديد، وتحاول أن تحيي معها اللغة الفارسيّة الحديثة أو الإسلاميّة، والتي اعتمدت في كثير من كلماتها ومصطلحاتها على اللغة العربيّة، كما أنّها كُتبت أيضًا بحروف عربيّة.

والواقع أنّ عصر النهضة الفارسيّة لم يقم معتمدًا على اللغة الفارسيّة الخالصة فى حدّ ذاتها، بل شرعَ الكتّابُ والشعراء يأخذون بعض مفرداتها وعباراتها، ويقتبسون من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة والأمثال العربيّة، وقد استخدموا في شعرهم بحورَ الشعر العربيّ، وزادوا عليها، وغيّروا فيها بعض التغيير، واستحدثوا صورًا شعريّة جديدة في مقدّمتها المثنوي والرباعي، وأصبح الشاعر الإيرانيّ بعد الإسلام لا

(*) أستاذ اللغة الفارسيّة وآدابها بكليّة اللغات والترجمة، جامعة الأزهر. m_nour_5@hotmail.com

يستطيع قول الشعر بلغته الفارسيّة ما لم تكن معرفته باللغة العربيّة كاملة، حافظًا لأشعار العرب مطالعًا لأقوالهم.

ونتيجة لهذا التأثّر بالعربيّة وآدابها، فقد أصبح من غير الممكن أن يكتب الكاتبُ أو ينظم الشاعرُ شيئًا بالفارسيّة وتكون كتابته خِلوًا من الألفاظ العربيّة، وخير مثال على ذلك شاهنامة الفردوسي (انتهى الشاعر من نظمها زهاء العام ٤٠٠ هجريّ) التي قصد ناظمُها أن يصوغها بأقدم العبارات والأساليب الفارسيّة، فإنّ أحدًا لا يستطيع القول بأنّها خالية من الألفاظ العربيّة، وربما كان موضوع الشاهنامة الذي يتناول فيه الشاعر تاريخَ إيران هو الذي دعاه إلى الإقلال من استعمال الكلمات العربيّة، ومحاولة جعلها منظومة فارسيّة خالصة.

ويُضاف إلى كلّ ذلك، الأفكار والمضامين العربيّة التي دخلت الفارسيّة من طريق اللغة العربيّة، ومثال ذلك أسماء كثير من العرب الذين اشتهروا بصفة معيّنة مثل حاتم الطائي وشهرته بالكرم، وليلى والمجنون وشهرتهما بالحب، ويوسف وزليخا وقصتهما التي وردت في القرآن الكريم، وغير ذلك من الموضوعات التي تأثّر بها الفرس في شعرهم ونثرهم، ونظموا كثيرًا من منظوماتهم حولها.

وهناك عوامل كثيرة ساعدت على دخول هذا العدد الكبير من الكلمات العربيّة إلى الفارسيّة، وأول هذه العوامل هو ترك الدين القديم والدخول في الدين الإسلاميّ، ممّا أدّى إلى انتشار نفوذ اللغة العربيّة وثقافتها في إيران. ومن أهمّ مظاهر هذا النفوذ أنّ الإيرانيّين تركوا الخطّ البهلويّ القديم المعقّد إلى الخطّ العربيّ الذي وجدوه أيسر في الكتابة وأوضح، فمن عيوب الخطّ البهلويّ أنّه كان يعبّر عن أصوات كثيرة بحرف واحد، كوجود حرف واحد للنون والواو والراء، ممّا يوقع القارئ في اللبس. وقد سهلت الكتابة بالحروف العربيّة انتقال كثير من الكلمات العربيّة إلى اللغة الفارسيّة الإسلاميّة المكتوبة بهذه الحروف، كما شجّعهم ذلك على قراءة المؤلّفات العربيّة والاطّلاع على الأدب العربيّ شعره ونثره.

ومن ذلك أيضًا أنّ الإيرانيّين وجدوا أنّ الكلمات العربيّة كانت في بعض الأحيان

أسهل بكثير من الكلمات الفارسيّة القديمة، كما أنّهم استعملوا بعض المصطلحات والمفردات التي لم يجدوا مقابلًا لها في لغتهم، وأهمّ أنواع هذه المصطلحات تلك التي تعبّر عن المفاهيم الجديدة، التي لم ترد في لغتهم.

والمعروف أنّ الفرس تركوا لغتهم لا يكتبون ولا ينظمون بها لمدّةٍ تجاوزت القرنين، ممّا جعلهم ينسون كثيرًا من الألفاظ والكلمات، فأخذت تحلّ محلّها كلمات عربيّة، وكان هذا من الأسباب التى ساعدت على دخول كثير من الألفاظ العربيّة في الفارسيّة، ولكنّهم عندما اضطروا بعد ذلك للكتابة بالفارسيّة، كان عليهم أن يتذكّروا كثيرًا من تلك الكلمات الفارسيّة المهجورة ويجدّدون استعمال بعضها والاستفادة منها.

ولا ننسى أيضًا أنّ أوائل كتّاب الفارسيّة الحديثة كانوا من ذوي اللسانَين، وهذا في حدّ ذاته يوضح لنا مدى تأثّر الفارسيّة بالعربيّة وثقافتها، إذ نقلَ هؤلاء من العربيّة إلى الفارسيّة كثيرًا من المفردات والمصطلحات، وكذلك نقلوا الأفكار والمضامين التي عرفوها وأجادوها، ونظم بعضهم الشعر باللغتَين، كما ألّف البعضُ الآخر الكثير من الكتب النثريّة باللغتَين أيضًا، ولم يقتصر التأثير على انتقال المفردات بل تعدّاه أيضًا إلى تأثير قواعد اللغة العربيّة في قواعد اللغة الفارسيّة. ويُعدُّ هذا في حدّ ذاته أمرًا نادرًا، إذ من النادر أن تؤثّر قواعدُ لغةٍ في قواعد لغة أخرى مثلما حدث بالنسبة إلى العربيّة والفارسيّة.

وقد ساهمت ترجمة بعض الكتب العربيّة إلى الفارسيّة في انتقال مجموعة كبيرة من هذه الكلمات إلى الفارسيّة أيضًا، ونحن نلاحظ في مثل هذه الكتب كثرة المفردات العربيّة فيها بالنسبة إلى غيرها من الكتب المؤلّفة بالفارسيّة أصلًا.

كما أنّ الذوق الأدبيّ لم يكن يرضى مطلقًا أن تقدّم له الفارسيّة خالصةً، فقد كان من المقبول لدى الفرس قراءة المؤلّفات الفارسيّة الممتزجة بالمفردات العربيّة والتي يجد فيها القارئ الطابع الدينيّ من ذكرٍ للآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة والأمثال العربيّة. ومن أبرز أمثلة ذلك ترجمة كتاب «كليلة ودمنة» التي قام بها أبو المعالي نصر الله بأمرٍ من بهرامشاه الغزنويّ سنة ٥٣٨ أو ٥٣٩ هـ.

ومن الأسباب التي ساعدت على رواج اللغة العربيّة ودخول ألفاظ عربيّة كثيرة في الفارسيّة، ولا سيّما في العصور المتأخّرة، ذلك الاهتمام الشديد بالمحسّنات اللفظيّة، والتي كانت تحتاج إلى مفردات كثيرة. ولم يجد الكتّاب والشعراء بدًّا من الاستعانة بالعربيّة، وهي بحر زاخر بالمفردات والمشتقّات، لكي يتمكّنوا من إظهار براعتهـم في مجال تلك الفنون البديعيّة. وقد نظم بعض الشعراء الفرس قصائد بديعيّة، وهي ما يُسمّى بالبديعيّات.

وقد ساعد الاختلاط والامتزاج بين العرب والفرس بعد الإسلام على تأثّر لغة كلّ منهم بلغة الآخر، والواضح أنّ اللغة العربيّة قد أثّرت تأثيرًا كبيرًا في اللغة الفارسيّة على نحوٍ جعلها المنهلَ الوحيد الذي تنهل منه الفارسيّة بعد الإسلام، ولم يقتصر التأثير العربيّ عند حدّ المفردات والمصطلحات بل تعدّاه أيضًا إلى التأثير من ناحية النحو العربيّ.

ولا يمكن لأحد أن ينكر أنّ التأثير لم يكن من جانب واحد، فممّا لا شكّ فيه أنّ العربيّة قد تأثّرت أيضًا بالفارسيّة، ولم يكن ذلك بعد الإسلام فحسب، بل كان قبل ظهور الإسلام، إذ كانت هناك علاقات وروابط سياسيّة وتجاريّة بين العرب والفرس يحدّثنا عنها التاريخُ.

كما أنّ القارئ للشعر العربيّ الإسلاميّ يلاحظ دخولَ عدد كبير من الألفاظ الفارسيّة في اللغة العربيّة، وقد استفاد منها الشعراء في شعرهم. وهذه الزيادة في الألفاظ الفارسيّة واستعمالها أمر طبيعيّ بعد امتزاج العرب والفرس، وتأثير كلّ منهم في الآخر.

وواقع الأمر أنّ اللغة العربيّة لم تتأثّر بلغة أجنبيّة أخرى قدرَ تأثّرها بالفارسيّة، وقد أدّى ذلك إلى أنّ أئمّة اللغة إذا أشكل عليهم أصلُ بعض الألفاظ الأعجميّة عدّوها فارسيّة، وقد يكون بعضها غير فارسيّ.